الفصل السابع

أحكام الشريعة

مبادىء الشريعة - الحقوق وأقسامها الأربعة — حقوق الله — حقوق النفس
حقوق العباد - حقوق سائر المخلوقات — الشريعة العالمية الدائمة

في هذا الفصل الأخير نبين لك من مبادىء الشريعة وأحكامها المهمة ما ستعلم منه كيف تجعل الشريعة الأسلامية حياة الإنسان مقيدة بضابطة محكمة وما في هذه الضابطة من الحكم والمصالح .

مبادئ الشريعة :

انك إذا تأملت في نفسك ، علمت انك قد جئت هذه الدنيا مودعاً في نفسك كثيراً من القوى التي تقتضي كل واحدة منها أن تستخدمها ولا تهمل شأنها . ففيك العقل والعزم والرغبة والنظر والسمع والذوق وقوة اليدين والرجلين وعاطفة النفرة والغضب والشوق والحب والخوف والطمع فما شيء من هذه الأشياء بعديم المنفعة وما اوتيته إلا لأنك في حاجة إليه . والذي يتوقف عليه نجاحك في هذه الدنيا أن تحقق ما تتطلبه اليك فطرتك وطبيعة نفسك . ولكن لا يمكن ذلك الا بأن تستخدم القوى التي اُوتيتها في نفسك .

ثم لا يخفى عليك أنك قد أوتيت وسائل يمكنك أن تستخدم بها هذه القوى المودعة في نفسك . فأول وسيلة من هـذه الوسائل هي جسدك الذي تجد فيه الأدوات الضرورية كلها ، ثم حولك هذه الدنيا التي انتشرت فيها وسائل مختلفة لا تقع تحت الاحصاء . ففيها النـاس من جنسك لمساعدتك والبهائم لخدمتك والنباتات والجمادات والأرض والماء والهواء والحر والنور وما إلى مثل هذه الأشياء الكثيرة التي لا يحصيها إلا الله . والله تعالى ما خلق هذه الأشياء في هذا الكون إلا لتستخدمها وتستمد منها في قضاء حياتك .

ثم انظر في الواقع من وجهة أخرى .

انك ما اوتيت هذه القوى إلا لنفعك لا لمضرتك . فالصورة الصحيحة لاستخدامها صورة فيها النفع لا المضرة ، وان كانت فيها المضرة ، فالى حد لا بد منه . يقول العقل ان كل صورة دون هذه الصورة غير صحيحة . فمثلاً إذا عملت عملاً ضرك في نفسك ، كنت على الخطأ وكذلك إذا استخدمت قوة من قواك على وجه يضر غيرك ، كنت أيضاً من المخطئين . وكذلك إذا استعملت قوة من قواك على وجه يهمل ما اودع في نفسك من الوسائل ، كنت أيضاً من الخاطئين . يشهد لك عقلك أن المضرة ، ولو من أي نوع كانت ، عليك أن تبتعد عنها ، ولا يمكن أن تصبر عليها إلا إذا كان الابتعاد عنها غير ممكن أو إذا كانت بازائها فائدة كبيرة .

ثم اذا تقدمت ، علمت أن الدنيا يوجد فيها نوعان من البشر . نوع من الذين يستخدمون بعض قواهم عمداً في الوجوه التي تفسد عليهم سائر قواهم او تجلب المضرة على غيرهم من البشر او هم يهملون

أدواتهم وقواهم التي أودعوها في أنفسهم . والنوع الثاني من الذين يفعلون كل ذلك ولكن من غير قصد من أنفسهم . فرجال النوع الأول من الاشرار وهم في حاجة الى قانون شديد يأخذ على أيديهم . ورجال النوع الثاني من الجهال الذين لا يعلمون شيئاً وهم محتاجون الى علم يشعرهم بالصورة الصحيحة لاستخدامهم قواهم .

ولقد جاءت الشريعة الاسلامية تسد هذه الحاجة وتحقق هذا الغرض فلا تريد منك أن تهمل قوة من قواك او تمحو رغبة من رغباتك او تنفي عاطفة من عواطف نفسك ، فهي لا تقول لك أن اترك الدنيا واقض ايام حياتك في الجبال والغابات والكهوف والمغارات واشدد على نفسك واكسر سورتها وذلها بالمصائب والشدائد وحرم عليها زينة الحياة الدنيا ولذاتها ونعمها . كلا ! فانها شريعة عي بوضعها الله الذي خلق للانسان هذه الدنيا ، فكيف يمكن أن يرضى لكونه بالاحياء والخراب والفناء ؟ ان الله تعالى ما أودع الانسان في نفسه قوة لا تنفعه ولا يحتاج اليها . وكذلك ما خلق شيئاً في السماوات ولا في الارض عبثاً ، بل يريد أن يبقى معمل الكون هذا يسير سيراً مستمراً على نظام مدبر وينتفع فيه الانسان من كل شيء ويستخدم مختلف أسبابه ووسائله ولكن على وجه لا يضر نفسه ولا أحداً غيره . ولهذا الغرض نفسه وضع الله تعالى ما وضع من قواعد الشريعة وضوابطها . وهكذا حرمت هذه الشريعة على الانسان كل شيء يجلب اليه الضرر وأحلت له كل شيء يعود عليه بالنفع ولا يضر غيره . ان المبدأ الذي يقوم عليه بناء الشريعة الاسلامية هو أن الانسان من حقه أن يعمل لتحقيق رغبات نفسه وحاجاتها ويسعى في سبيل منفعته الذاتية كيف ما يشاء . ولكن من

الواجب عليه في الوقت نفسه ان لا يتمتع بهذا الحق الا من حيث لا يضيع حقوق غيره من البشر بجهله او شره ، بل ينبغي أن يكون مساعداً لهم ومتعاوناً معهم على قدر وسعه . أما الامور التي فيها ناحية النفع وناحية للضرر ، فتقول فيها الشريعة ان الانسان عليه أن يتحمل الضرر الخفيف النفع الكبير ويترك النفع التافه احترازاً من الضرر الشديد .

لا يمكن أن يعرف كل انسان في كل زمان عن كل شيء او عمل ما فيه من النفع او الضرر . ولذا وضع الله تعالى — وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه سر من أسرار الكون — نظاماً صحيحاً كاملاً لحياة الانسان . وما كان الناس ليفطنوا الى كثير من مصالح هذا النظام في القرون القديمة ، ولكن رقي العلم في هذا الزمان قد كشف عنها الغطاء بل لا يزال الناس يجهلون كثيراً من مصالحه في هذا الزمان ايضاً ، ولكنها لا تزال تتكشف وتتجلى لأعين الناس على قدر ما يكتب للعلم من الرقي والنمو .

والذين عوّلوا على علمهم الناقص وعقولهم الضعيفة ، ما وجدوا لأنفسهم بداً في آخر الأمر أن يختاروا قاعدة من قواعد هذه الشريعة نفسها بعد ما هاموا على وجوههم وخبطوا في ظلمات الجهل والخطأ والضلال خبط عشواء الى قرون . أما الذين اعتمدوا على رسول الله واهتدوا بهديه واستناروا بنوره ، فقد أمنوا عواقب الجهل ومضراته ، فهم يواظبون دائماً على قانون وضع على قواعد العلم الصحيح الخالص ، سواء أعرفوا ما فيه من المصالح وفي اتباعه من المنافع أم لم يعرفوا .

الحقوق وأقسامها الأربعة :

وبحكم الشريعة الاسلامية يجب على كل فرد من أفراد البشر أربعة أقسام من الحقوق :

١ ـ حقوق الله

٢ ـ حقوق النفس

٣ ـ حقوق العباد

٤ ـ حقوق ما تحت يده في هذه الدنيا من شيء يستخدمه وينتفع منه .

من الواجب على كل مسلم صادق أن يعرف هذه الاقسام الاربعة من الحقوق ويؤديها بكل اخلاص وأمانة وصدق . والشريعة الاسلامية قد بينت كلاً من هذه الاقسام على حدة ووضعت وأوضحت لاداتها من الطرق والمناهج ما يساعد البشر على ادائها في آن واحد حيث لا يضيع منها حق ما ضمن حدود الامكان .

حقوق الله :

ان أول حق من حقوق الله تعالى أن يُؤمَن به ولا يُشرك به شيء ولا يُتخذ غيره الهاً ولا رباً . ويؤدّى هذا الحق بالايمان بكلمة « لا اله الا الله » كما بينا لك من قبل .

والحق الثاني من حقوق الله أن يُذعَن اذعاناً تاماً لما جاء من عنده من الحق والهداية . ويؤدّى هذا الحق بالايمان بـ « محمد رسول الله » كما أوضحناه لك من قبل .

والحق الثالث من حقوق الله أن « يطاع » . ويؤدّى هذا الحق باتباع القانون الذي بينه كتاب الله المجيد وأوضحته وشرحته سنة رسوله ﷺ ، كما أشرنا اليه من قبل .

والحق الرابع من حقوق الله أن « يعبد » . ولاداء هـذا الحق فرض على الانسان ما فرض من الفرائض والواجبات التي مر ذكرها في الفصل السابق . ولأن هذا الحق أولى من غيره ، يجب أن يُضحّي لاداثه بسائر الحقوق الى حـد ما . فمثلاً أن الانسان عندما يقوم لاداء فريضة الصلاة او الصوم ، يضحي بكثير ممـا عليه من حقوق نفسه : يستيقظ مبكراً ويتوضأ بالماء البارد ويترك كثيراً من أعماله المهمة وأشغاله الشاغلة غير مرة واحدة في الليل والنهـار لاداء فريضة الصلاة ويدع طعامه وشرابه ويكبح نفسه شهراً كاملاً لاداء فريضة الصوم ويؤثر حبّ الله على حب المـال لاداء فريضة الزكاة ويقاسي وعثـاء السفر وشدائده وينفق كثيراً من أمواله في الحج ويضحي بنفسه ومـاله في الجهـاد . وكذلك يضحي بما عليه من حقوق الناس لأداء حقوق الله الى حد قليل او كثير . ففي الصلاة مثلاً يكف العبد عن خدمـة سيده ليعبد سيده الاكبر ويؤدي ما عليه من حقه وفي الحج يفتر عن شؤون معاشه وتجارته ويغـادر أهـله وأبناءه ويسافر الى بيت الله الحرام ، ممـا يمس بحقوق كثير من الناس من غير شك . وفي الجهاد لا يَقتل الانسان ولا يُقتل الا لوجه الله تعـالى وحده . وكذلك يضحي الانسان لاداء حقوق الله بكثير من الاشياء التي يتصرف فيهـا وهي تحت يده كالتضحية بالحيوانات وانفاق المال .

على أن الله تعالى قد وضع لحقوقه حدوداً حتى لا يُضحَّى بحقوق غيره لاداء حق من حقوقه إلا إلى حد لا بد منه . خذ لذلك الصلاة مثلاً . فالله تعالى ما اراد بك العسر في اداء الصلاة بل اراد اليسر ، فانك إذا لم تجد الماء أو كنت مريضاً فلك أن تتيمم صعيداً طيباً . وان كنت على سفر فلك أن تقصر من صلاتك . وان كنت مريضاً فلك أن تصلي قاعداً أو مضطجعاً . وأن الذي تقرأ به في صلاتك من القرآن ليس بكثير حتى أنك لا تصرف في القراءة به إلا دقائق معدودة . تقول الشريعة انك إذا كنت في حال من الدعة والطمأنينة ، فلك أن تقرأ في صلاتك بما شئت من القرآن كسورة البقرة أو آل عمران أو النساء أو غير هذه من السور الطوال ، ولكن لا يجوز لك أن تطيل صلاتك في أوقات شغلك . ثم ان الله تعالى وان كان يفرح كثيراً إذا تطوع الإنسان وتقرب إليه بالنوافل بعد الصلوات المكتوبة ، ولكنه لا يريد أبداً أن تحرم على نفسك نوم الليل وراحة النهار أو تقضي أوقات الكسب في النوافل أو تنقطع إلى الصلاة عن شؤون الدنيا كلها ولا تكترث لما عليك من حقوق عباد الله .

وكذلك قد يسّر الله عليك كثيراً في الصوم ، فانه ما افترض الصوم على عباده إلا مدة شهر من السنة ويجوز تأخيره إلى أيام أُخر اذا كان الإنسان مريضاً أو كان على سفر . ولا يجوز أن تضاف دقيقة واحدة إلى ما حدد للصوم من الوقت ، وللصائم أن يأكل ويشرب حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود – أي السحر – من الفجر ، ثم إذا أتم صومه إلى غروب الشمس ، فعليه أن يفطر على الفور . ثم إنّ الله تعالى وان كان يفرح بعبده كثيراً إذا صام صوم التطوع بعد

صيام شهر رمضان المكتوب . ولكنه لا يحب منه أبداً أن يواصل في صومه وينهك بدنه ويقعد عن أعمال الدنيا .

وكذلك ما قرر الاسلام إلا ازهد مقدار ممكن من المال لايتاء الزكاة وما فرضه إلا على الذين يملكون النصاب . فمن تطوع بعد ذلك وتصدق بأكثر من ذلك في سبيل الله ، فان الله وان كان يرضى عنه ويحب عمله ويحمد عاطفته ، ولكنه لا يريد منه أن يضحي بما عليه من حقوق نفسه وأهله وينفق في سبيله جميع أمواله ويقعد ملوماً محسوراً بين الناس ، بل يجب عليه القصد والاعتدال في هذا الباب أيضاً .

ثم انظر إلى الحج . فالمعلوم في بابه أن الله تعالى لم يفترضه الا على الذين يملكون الزاد ويقدرون على تحمل وعثاء السفر ومشاقه . ولكن الله قد زاد للناس السهولة فيه فلم يفترضه على الانسان إلا مرة واحدة في طول عمره . وان كانت في الطريق الحرب أو الفتنة أو خاف على نفسه ، فله أن يرجىء الحج إلى ما بعد زوال تلك الفتنة . وكذلك قرر ان لا بد للانسان من رضا الوالدين إذا أراد الحج لئلا يتأذيا في غيابه امجزهما وكبر سنهما . فيتبين من كل ذلك أن الله تعالى قد راعى كثيراً حقوق غيره في حقوقه جل شأنه .

وأكبر تضحية بالحقوقه الانسانية يؤديها الانسان في الجهاد ، فان الانسان في الجهاد يضحي بنفسه وماله بنفوس الآخرين وأموالهم ابتغاء لمرضاة الله ، ولكن من قواعد الاسلام ومبادئه الأساسية ، كما بينا لك من قبل ، ان يُتحمل الضرر الخفيف احترازاً من الضرر الشديد . فاذا تفكرت في هذا المبدأ وعرفته ، وجدت أن قتل بعض مئات أو

الوف من أفراد البشر اهون ضرراً بالنسبة إلى أن تعلو في الأرض كلمة الباطل بازاء الحق ويغلب دين الله على أمره بازاء قوى الكفر والشرك والالحاد ويعم في الأرض الضلال والاباحية والفوضى . فاحترازاً من هذا الضرر الشديد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتحملوا في سبيله وابتغاء وجهه ما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم من الضرر الخفيف . وكذلك أمرهم أن لا يقتلوا إلا نفساً لا بد من قتلها ولا يعتدوا على العجزة والنساء والأطفال والجرحى والمرضى ولا يقاتلوا إلا الذين يقاتلونهم حمايةً لباطلهم ، ولا يعثوا في أرض العدو مفسدين من غير ما حاجة ولا سبب ، ويعدلوا بين الأعداء إذا فتحوا بلادهم وانتصروا عليهم ويوفوا بكل ما يعاهدونهم عليه ولا سبيل لهم عليهم إذا كفوا أيديهم وامسكوا عن معاداة الحق ومخالفته ومناصرة الباطل . فيدل كل ذلك أن الله لم يُجز لاداء حقه إلا تلك التضحية بالحقوق الانسانية ، التي لا بد منها .

حقوق النفس :

ولك أن تتناول الآن القسم الثاني مما على الانسان من الحقوق ، وهي حقوق نفسه .

ولعل العجب يأخذك إذا قلت لك أن الإنسان يظلم نفسه أكثر مما يظلم غيره ، لأن كل إنسان يحس ويحسب أن نفسه احب إليه من غيره ، ولا أرى أحداً يقر بأنه عدو لنفسه . لكنك إذا تدبرت هذا الأمر قليلاً ، تبينت لك حقيقته .

من ابرز مواطن الضعف التي فطر عليها الانسان أنه إذا غلبته شهوة من الشهوات ، انقاد لها كل الانقياد ولا يبالي بما يصاب لأجلها

من الضرر في نفسه ، سواء أكان يشعر بذلك أو لا يشعر . ترى رجلاً قد افتتن بالسكر ، يسعى في سبيله ويتحمل لأجله المضرات الفادحة في صحته ونفسه وماله وعرضه . وترى رجلا غيره قد اولع بلذة الطعام يأكل كل ما يجد من نافع أو غير نافع ويعرض نفسه للهلاك في سبيله . وترى رجلاً ثالثاً صار عبداً لشهواته النفسانية يأتي باعمال تجره إلى الهلاك جراً . وترى رجلاً رابعاً قد اهمّته نفسه فانقطع إلى تزكية روحه وترقيتها ، يناصب نفسه العداء ويريد أن يدوس كل ما تتطلع إليه من اللذائذ والشهوات ويأبى أن يحقق حاجاتها ويجتنب الزواج ويأنف الأكل والشراب ويجانف اللباس ويبغضه ، حتى أنه لا يكاد يرضى بالتنفس في هذه الدنيا المليئة بالمآثم في نظره فيأوي إلى الغابات والكهوف ويظن أن هذه الدنيا ما بُنيت له .

هذه أمثلة قليلة لتطرف الانسان في هذه الدنيا ، وإلا ففي حياته صور عديدة لهذا التطرف نشاهدها بين كل آونة وأخرى .

وبما أن الشريعة الاسلامية تريد فلاح الانسان وسعادته ، فهي تنبهه إلى الحقيقة الثابتة القائلة « إن لنفسك عليك حقاً » . وهي تمنعه عن كل شيء يضره كالخمر والحشيش والافيون وغيرها من الأشياء المسكرة والميتة والدم ولحم الخنزير وغيره من الوحوش الضارية والسمومة والحيوانات النجسة ، فان لهذه الأشياء كلها تأثيراً سيئاً في صحة الانسان واخلاقه وقواه العقلية والروحية ، وتحل له بدلاً منها الاشياء المفيدة الطيبة وتقول له لا تحرم نفسك من التمتع بها فان لجسدك عليك حقاً .

وهي تنهاه عن العرى وتأمره ان يتمتّعَ بما قد انزل الله له من

الزينة في هذه الدنيا ويستر من جسده الأعضاء التي يعد من الوقاحة الكشف عنها .

وهي تأمره بالجد في كسب الرزق وتقول له لا تقبع في بيتك عاطلاً ولا تمدّن يدك إلى الناس مستجدياً جدواهم ولا تلفظ نفسك جوعاً واستخدم ما قد انعم الله عليك من القوى واسعَ بالطرق المشروعة لنيل ما قد خلق الله في الأرض والسماوات من الوسائل والأسباب لراحتك وتربيتك .

وهي لا تسمح أن يكبح شهوات نفسه كل الكبح ، بل تأمره بالزواج لقضاء ما في نفسه من الشهوة .

وهي تمنعه عن تذليل النفس وحرمانها من رغد العيش ومتعة الحياة ، وتقول له انك ان كنت تريد الرقي الروحاني والتقرب إلى الله والنجاة في الآخرة ، فلا حاجة لك ولا داعي الى ترك الدنيا ، فان ذكر الله تعالى في هذه الدنيا مع التمتع بلذاتها ومنافعها واجتناب معصيته واتباع قانونه وشريعته ، لهو أكبر وسيلة وأنجعها إلى الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

وهي تحرم عليه الانتحار وتقول له ان هذه النفس التي قد اوتيتها إن هي إلا ملك لله قد أودعها أمانةً عندك لتستخدمها إلى أجل مسمى وما أوتيتها لتعبث بها وتقضي عليها بيدك .

حقوق العباد :

أمرت الشريعة الإسلامية الإنسان بأداء حقوق نفسه وجسده في جانب ، وأمرته في الجانب الآخر ألا يؤدي هذه الحقوق على وجه

يمس بحقوق غيره من عباد الله في الدنيا ، فانه اذا قضى شهواته ورغباته على هذا الوجه ، نجّس نفسه وأضر بغيره . فلأجل ذلك قد حرمت الشريعة النهب والسلب والسرقة والارتشاء والخيانة والتزوير والغدر وأكل الربا ، فان المنفعة التي يكسبها الانسان بهذه الطرق ، انما يكسبها بجلب الضرر الى غيره في حقيقة الأمر . وكذلك حرمت عليه الشريعة الكذب والغيبة والنميمة والافتراء ، فان هذه الأمور أيضاً تجلب الضرر الى غيره من عباد الله . وكذلك حرمت عليه القمار والميسر واليانصيب ، فان منفعته في هذه كلها لاتكون مبنية الا على ضرر الوف من الناس غيره ، وكذلك حرمت عليه صفقات الغش والغرر وغيرها من الشؤون المالية الاخرى التي يمكن ان يصيب الضرر فيها احد الفريقين دون صاحبه . وكذلك حرمت عليه القتل والافساد في الأرض وإفشاء الفتنة ، فانه لايحل لأي فرد من أفراد البشر ان يقتل غيره أو يصيبه بنوع من الأذى حصولاً على أمواله أو ارواءً لغليلة في النفس . وكذلك حرمت عليه الزنا وعمل قوم لوط ، فان هذه الاعمال تفسد عليه صحته وأخلاقه في جانب وتؤدي الى تفشي الاباحية والوقاحة والاستهتار في المجتمع في الجانب الآخر وتفضي به أخيراً الى الأمراض الخبيثة وتفسد فيه الانسال وتحدث الفتن وتخل بالعلائق الانسانية وتزعزع قواعد الحضارة والمدنية .

هذه قيود وضعتها الشريعة الاسلامية على الحياة الانسانية لئلا يسلب الانسان حقوق غيره أو يبخس منها شيئاً اداءً لما عليه من حقوق نفسه وجسده . ولكنه لايكفي لترقية المدنية الانسانية واسعادها ألا يصيب

الانسان غيره بشيء من الضرر ، بل لابد لهذا الغرض في الوقت نفسه ان تكون علائق الناس وصلاتهم في ما بينهم قائمة على وجه يجعلهم جميعاً متعاونين على الخير متناصرين على المصالح الاجتماعية ، وفي ما يلي نذكر لك خلاصة ماوضعت الشريعة الاسلامية من القوانين لهذا الغرض :

١ — ان العلائق البشرية تبتدئ بحياة الأسرة ، فلك ان تنظر نظرة في حياة الأسرة قبل غيرها . وما الأسرة في حقيقة الأمر إلا ذلك المجموع الذي يضم الزوجين وأولادهما . فالذي يضع عليه الاسلام أساس الأسرة هو انه من واجب الزوج ان يكسب للاسرة ويهيء لها حاجاتها ويدافع عن أفرادها ، وأنه من واجب المرأة ان تدبر شؤون المنزل بما يكسبه الزوج وتهيء أكبر راحة ممكنة لزوجها وأولادها وتعنى بتربية الأولاد ، وانه من واجب الاولاد ان يطيعوا أبويهم ويجلوهما ويخدموهما اذا كبروا . ولأجل ان يبقى نظام الأسرة سائراً على الخير والرشد والصلاح ، فقد اختار الاسلام تدبيرين أولهما أن جعل الزوج والأب حاكماً على الأسرة ناظراً لشؤونها ، فانه كما لا يمكن ان يصلح نظام بلدة من البلدان ويسير أمرها بدون حاكم قائم على شؤونها أو يسير نظام مدرسة من المدارس بدون رئيسها ، كذلك من المستحيل ان يصلح ويسير نظام الاسرة بدون من يكون حاكماً عليها ناظراً لشؤونها ، ولا بد أن تعم الفوضى والاضطراب في اسرة يكون كل فرد من أفرادها مستقلاً برأيه غير مسؤول عن شيء من أعماله وان ينعدم فيها الهناء والطمأنينة والسكينة . ولا بد لإزالة هذه المفاسد ان يكون للاسرة حاكم قوام على شؤونها ، وانما الرجل هو الذي يمكن ان يكونه ، فانه هو المسؤول عن تربية أهل البيت وحمايتهم .

والتدبير الثاني أنه قد أمر المرأة ، بعدما القى على كاهل الرجل تبعة ما في خارج البيت من الشؤون والمامالات ، ألا تخرج من المنزل بدون حاجة تعرض لها وقد أعفيت لأجل ذلك من المسؤولية عما في خارج المنزل من الشؤون لتقوم بواجباتها في داخل المنزل حق القيام بكل هدوء وطمأنينة ، ولا يختل نظام المنزل وتربية الاولاد بخروجها من البيت . ولكن ليس معنى ذلك أن المرأة لايجوز لها ابداً أن تخرج من البيت ، بل قد أذن لها بالخروج منه اذا ما عرضت لها الحاجة الى ذلك ، وإنما تريد الشريعة ان يكون البيت هو الدائرة الحقيقية لواجباتها ولا تصرف كل ما اوتيت من القوة والذكاء الا في إصلاح شأن البيت .

وبقربات الدم وعلائق التزاوج تتسع دائرة الأسرة . فالذين يتصلون في ما بينهم في هذه الدائرة ، قد قررت لاصلاح ذات بينهم وجعلهم متساندين متناصرين في ما بينهم ، قواعد مختلفة مبينة على الحكم البالغة . من هذه القواعد :

١ — حرمت الشريعة بعض الذين يتعاشرون في ما بينهم مختلطين من الرجال والنساء على بعض ، كالأم وابنها والأب وبنته وزوج الام وربيبته وزوجة الأب وابن زوجها والأخ واخته بالرحم وبالرضاعة ، والعم وبنت اخيه والعمة وابن اخيها والخال وبنت اخته والخالة وابن أخيها وأم المرأة وزوج ابنتها وأبي الزوج وامرأة ابنه . ومن الفوائد الكثيرة لتحريمها أن أمثال هؤلاء الرجال والنساء تبقى علاقتهم طاهرة نقية وهم يختلطون في ما بينهم بكل حب ومودة واخلاص من غير كلفة ولا ارتياب

٢ ــ وقد أحل الاسلام بعد هذه العلائق علاقة الزواج بين أفراد الاسرة الآخرين ليزدادوا قرابة على قرابتهم وحباً على حبهم . ان الذين يعرف بعضهم عادات بعض وطباعهم وخصالهم ، تكون علاقة الزواج بينهم أكثر نجاحاً منها بين الذين لا يتعارفون في ما بينهم ما تنشأ فيهم صور الخصومة وعدم التوافق . ولأجل ذلك قد آثر الاسلام ذوي القربى على غيرهم للزواج .

٣ ــ وفي الاسرة الغني والفقير وذو اليسرة والعسرة ، لذا نص الاسلام على أن أكبر ما على الانسان من حقوق العباد هو لذوي قرباه وذلك ما يقال له « صلة الرحم » في الشريعة . وقد تأكد وتكرر ذكر صلة الرحم في القرآن والسنة واعتبر قطعها من الكبائر . فان نزلت نازلة بذي عسرة ، فمن واجب الذين يجدون سعة في أموالهم من أقاربه أن يغيثوه ويمدوا اليه يد المعونة . كما أن حق الاقرباء في الصدقة قد أوثر على حق غيرهم .

٤ ــ وقد وضع الاسلام قانون الارث من حيث اذا مات رجل من الرجال وترك من بعده مالاً ، فلا ينبغي أن يبقى هذا المال متجمعاً مرتكزاً في محل واحد ، بل لا بد أن ينال منه كل ذي قرابة نصيبه . فالابن والبنت والزوجة والزوج والأب والام والأخ والاخت أقرب ذوي الحق للانسان . ولذا بينت الشريعة انصبتهم في القرابة قبل أن تبين حقوق غيرهم . فان لم يكونوا موجودين مثلاً ، ينال النصيب كل من يليهم في القرابة . وهكذا تتوزع ثروة الرجل الواحد بين كثير من ذوي قرباه ويتمتعون بها جميعاً بعد موته . فقانون الاسلام هذا لا نظير له في قوانين العالم القديمة ولا الحديثة ، وان كانت بعض الامم قد بدأت

اليوم في الدنيا تترسم خطا الاسلام في هذا القانون . ولكن من دواعي الاسف أن المسلمين أنفسهم شرعوا في مخالفته بجهلهم وسفاهتهم وقد عم في المسلمين في أكثر نواحي بلادنا — في قرانا خاصة — مرض حرمان البنات من الميراث ، مما هو ظلم شنيع ومخالفة لأحكام القرآن الصريحة الواضحة .

وبعد علائق الاسرة يتصل الانسان باصدقائه وجيرانه وأهل حيه وبلدته والذين قد تعرض له الشؤون المختلفة معهم . وقد أمر الاسلام أن عاملوا هؤلاء جميعاً بالصدق والعدل وحسن الخلق ولا تؤذوا منهم أحداً واجتنبوا فحش القول وسوء الكلام معهم وتناصروا في ما بينكم وعودوا مرضاكم واتبعوا جنائز موتاكم واذا أصيب منكم أحد بمصيبة ، فواسوه وأعينوا الفقراء والمحتاجين والعجزة فيكم سراً وخفية وتعهدوا اليتامى والأيامى بالعطف عليهم وأطعموا الجائع واكسوا العاري وانصروا العاطل حتى يجد لنفسه المكسب . واذا كان الله قد آتاكم من فضله ، فلا تنفقوه ولا تسرفوا به في بذخكم وترفكم . وقد حرمت الشريعة عليكم أن تأكلوا وتشربوا في أواني الذهب والفضة وتتزيوا بالملابس الحريرية وتضيعوا المال في مواضع البذخ والترف . كل ذلك لأن الثروة التي يمكن أن يتمتع بها مئات والوف من عباد الله ، لا ينبغي أن يتمتع ويرفل بها فرد واحد كيف ما يشاء وتشاء شهواته ، فانه من الظلم أن تبقى الأموال التي يمكن أن يملك بها الوف من عباد الله رمق حياتهم ، معلقة في جيدك بصورة حلية من الحلى او تكون زينة لمنضدتك بصورة آنية من الأواني او تكون زينة تفرش بها غرفتك او تكون نيراناً صناعية تضيعها في الهواء . ولكن ليس معنى ذلك أن الاسلام يريد أن

يسلبك كل ما عندك من الثروة ، بل إن كل ما كسبته او ورثته من أبويك من الأموال لك ومن حقك المشروع ، وأنت مستحق أن تتنعم بثروتك ويجوز أن ترى في ملبسك وماكلك ومنزلك ومركبك آثار نعمة الله ، ولكن الغرض المقصود من وراء تعاليم الاسلام أن تعيش عيشة طيبة مقتصدة ولا تكثر من كمالياتك وان ترعى في كل ما آتاك الله حقوق ذوي قرباك وأصدقائك وجيرانك وأبناء وطنك وأبناء امتك وأبناء آدم جميعاً .

ولك أن تخرج الآن من هذه الدوائر الضيقة وتنظر في الدائرة الواسعة التي تشتمل على مسلمي العالم جميعاً وقد وضع الاسلام في هذه الدائرة من القوانين والضوابط ما يجعل المسلمين جميعاً متعاونين متناصرين في ما بينهم على الخير والبر والتقوى ولا يسمح للسيئات والمنكرات في حدود الامكان بأن ترفع رأسها في الأرض . وفي ما يلي نشير الى بعض هذه القوانين :

١ – امر الاسلام ، حفظاً للأخلاق القومية الاجتماعية ، بألا يختلط الذين لا يمت بعضهم الى بعض بالصلات المحرمة من الرجال والنساء ، في ما بينهم بصورة حرة ، ولتكن للنساء بيئة غير بيئة الرجال ولهن أن يصرفن معظم همهن في القيام بواجبات حياة الاسرة وان دعتهن الحاجة الى الخروج من بيوتهن ، فلا يخرجن متزينات متبرجات وليخرجن بملابسهن البسيطة وليسترن أجسامهن وليسترن وجوههن وأيديهن أيضاً ما لم تدعهن الى الكشف عنها حاجة شديدة وليكشفن عنها لقضاء هذه الحاجة فقط . ومن جهة اخرى أمر الاسلام الرجال باجتناب النظر الى نساء غير نسائهم ، واذا وقع نظرهم عليهن من غير قصد ، فليصرفوه

عنهن ولا يعودوا اليه مرة اخرى ، فان في ذلك ما يعيب أخلاقهم . وان حاولوا مخالطتهن ، فهو أشد عيباً لهم . ومن واجب كل رجل — وكل امرأة — أن يحافظ على أخلاقه ولا يترك المجال لينشأ في قلبه ويخطر ببالله ميل ولو خفيف الى قضاء شهواته النفسانية بالخروج عن دائرة الزواج المشروع فضلاً ان يحاول ذلك ويسعى وراءه سعياً .

٢ — وقد نهى الاسلام لحفظ الاخلاق القومية ان يكشف الرجل عما بين سُرّته وركبتيه وأن تكشف المرأة ما دون الوجه واليدين من سائر أعضاء جسدها ولا لقريب من أقاربها الادنين . وهذا ما يقال له « الستر » في الشريعة ، ومن واجب كل رجل وامرأة أن يحافظ عليه . وقد أراد الاسلام بذلك أن تنشأ في الناس مادة الحياء ولا تشيع بينهم الفواحش والمنكرات التي تجر صاحبها أخيراً الى الاباحية والانحلال الخلقي .

٣ — لا يحب الاسلام من أعمال الطرب واللهو ما كان مفسداً لأخلاق الناس ومنعشاً لشهواتهم السافلة ومضيعاً لاوقاتهم وصحتهم وأموالهم . ولا شك أن اللهو شيء ضروري في حد ذاته ولا بد منه مع العمل والجد لتنشئة روح الحياة وقوة العمل في الانسان ، ولكن ينبغي ان يكون لهواً ينشيء النشاط ويرطب الروح ولا لهواً ينغص الروح ويكثفها . أما أعمال الطرب واللهو السافلة التي يشاهد فيها الوف من الأفراد معاً الحوادث المفروضة لركوب الجرائم والمناظر المتصنعة للاباحية والانحلال الخلقي ، فان هي الا مما يفسد أخلاق الامم وعاداتها ، وان كانت جميلة المنظر تسر الناس في ظاهر الأمر .

٤ — وللمحافظة على وحدة المسلمين وسعادتهم القومية أمرهم الاسلام أمراً مؤكداً ان يجتنبوا التخالف في ما بينهم ويبتعدوا عن دواعي

التحزب والتفرق . فان اختلفوا في أمر من أمورهم ، فليردوه الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بكل اخلاص وصفاء نية ولكن اذا لم يجتمعوا في رأيه على شيء ، فليكلوا أمرهم الى الله ولا يتنازعوا في ما بينهم ، وليتعاونوا على أعمال الفلاح والسعادة الجماعية ويطيعوا اولي الامر منهم ويبتعدوا عن رجال الشر والفتنة ولا يوهنوا قوتهم ولا يفضحوا أمتهم بالحروب الداخلية في ما بينهم

٥ — وقد أذن المسلمين ان يتقوا العلوم والفنون ويتعلموا الطرق النافعة من غير المسلمين ، ولكنهم نُهوا عن التشبه بهم في حياتهم ، فان الامة لا تتشبه بغيرها الا اذا كانت معترفة لنفسها بالذل والهوان والضعة وللاخرى بالسبق والعلو والرقي . وهذا من أفذر أنواع العبودية وهو اعتراف سافر بالانكسار والانحطاط . ومن نتائجه اللازمة ان تنقرض مدنية الامة المتشبهة المحتذية ومن أجل ذلك نهى النبي ﷺ المسلمين نهياً شديداً عن اتباع الامم الاجنبية واختيار مدنيتهم ومما يفهمه كل من أوتي قليلاً من العقل ان قوة كل أمة لا تقوم على زيها ولا على طراز حياتها وانما تقوم على مالها من العلوم وجودة التنظيم وقوة العمل . فمن كان يريد القوة والكمال والرقي ، فليتلق عن الامم الأجنبية ما تحصل به الامم على أسباب قوتها ورقيها وكمالها ولا يميلن الى ما تتذلل به الامم وتنضم الى أمم أجنبية وتقضي على حيويتها ومقوماتها أخيراً .

وقد نُهي المسلمون أن يعاملوا غير المسلمين بالعصبية وضيق النظر ويسبوا آلهتهم ويطعنوا في كبرائهم ويهينوا ديانتهم . وكذلك نهوا عن أن يبدؤوهم بالخصومة . فما دام غير المسلمين يريدون المصالحة والمسالمة مع المسلمين ولا يتعدون على حقوقهم ، فمن واجبهم أن يعاملوهم بالمصالحة

والمسالمة . ان مما يوجبه علينا شرفنا الاسلامي أن نعامل غيرنا بأعلى ما يمكن من عواطف المحبة والمواساة الانسانية والأخلاق العالية ، ومما ينافي أحكام الاسلام وفطرة المسلم أن نعامل غيرنا بالعصبية وسوء الخلق والظلم وضيق النظر ، فانه ما أُخرج المسلم للناس إلا ليكون لهم اسوة يتأسون بها في حسن الأخلاق والشرف وسعة الصدر والصلاح وليجلب قلوبهم بمبادئه الطاهرة المبنية على الحق والعدل .

حقوق سائر المخلوقات :

هذا ونريد أن نبين لك الآن النوع الرابع من الحقوق :

ان الله قد فضل الانسان على كثير من مخلوقاته واذن له أن يتصرف فيها ويخضعها بقوته ويستخدمها وينتفع منها في ما يريد . وذلك جزء من حقه المشروع باعتباره أفضل خلق الله في الأرض . ولكن مازاد كل ذلك رتب الله على الانسان حقوقاً لهذه المخلوقات . فمنها ألا يضيعها أو يضرها أو يؤذيها من غير حاجة شديدة ، وإذا ضرها فعليه أن يضربها بما لا يرى لنفسه بداً منه ويختار لاستخدامها والتمتع بها أحسن الطرق وأعدلها .

وقد فاضت الشريعة الاسلامية بمثل هذه الأحكام المتواترة . فما اذن للانسان أن يقتل البهائم الا للغذاء أو اتقاء المضرة ، وقد نُهي نهياً شديداً أن يقتلها من غير حاجة على سبيل اللهو والطرب مثلاً . وقد وضع لقتل البهائم المأكولة طريق « الذبح » الذي هو أحسن طريق لأخذ اللحم النافع منها . وكل طريق دون طريق الذبح ، ان كان أقل

منه ايذاء للبهيمة ، فانه يُضيع كثيراً من فوائد اللحم ، وان كان اكثر منه حفظاً لفوائد اللحم ، فانه أكثر منه ايذاء للبهيمة . والاسلام يتجنب هاتين الناحيتين . ونهى نهياً شديداً عن قتل البهائم بالقسوة والايذاء . وكذلك ما أذن الاسلام بقتل الوحوش الضارية والحشرات السامة الا لأن النفس البشرية اجل قدراً وأكثر ثمناً من حياة هذه الوحوش والحشرات ، ومع ذلك فهو لا يبيح قتلها بالتعذيب والايذاء . وكذلك نهى الاسلام نهياً شديداً عن إجاعة الحيوانات التي نستخدم ظهورها في الركوب أو حمل الأثقال وعن تكليفها فوق طاقتها وعن ضربها بقسوة . وكذلك كره الاسلام أن نحبس الطيور من غير حاجة ، بل لا يكاد الاسلام يرضى أن نصيب الاشجار فضلاً عن الحيوانات ، بشيء من الضرر ، فلنا أن نقطف أزهارها وأثمارها ولكن لا يحق لنا أن نبيدها أو نقلعها من غير حاجة . بل لا يجيز الاسلام فضلاً عن النباتات ذات الحياة ، أن نضيع شيئاً لا حياة فيه . فقد نهى عن صب الماء واضاعته بدون حاجة .

الشريعة العالمية الدائمة :

كل ما بيناه لك آنفاً انما هو خلاصة موجزة لاحكام وقوانين تلك الشريعة البيضاء التي ارسل بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الى العالمين الى ابد الآبدين . ولم يُفرق بين الانسان والانسان في هذه الشريعة شيء غير العقيدة والعمل . والحق ان جميع الشرائع والديانات التي قد فرّق فيها بين الانسان والانسان بناء على النسل أو الوطن أو اللون ، لا يمكن أن تكون شرائع عالمية ، فانه من المستحيل طبعاً أن يصبح

فرد من هذا النسل فرداً من ذلك النسل ، كما لا يمكن لأهل الأرض أن ينكمشوا جميعاً ويحددوا أنفسهم في أرض وطن خاص ، كما لا يمكن أن يتغير سواد الحبشي أو صفرة الصيني أو بياض الافرنجي عن فطرته فالظاهر ان مثل هذه الديانات لا تنشأ ولا تعيش الا في امة خاصة من الامم . وبازائها جمعاء جاء الاسلام بشريعة عالمية يمكن لكل من آمن بعقيدتها « لا إله الا الله محمد رسول الله » ، أن يدخل في الامة المسلمة ويتمتع فيها بنفس الحقوق التي يتمتع بها سائر المسلمين ، فانه لا عبرة في هذه الشريعة بالنسل أو اللغة أو الوطن أو اللون .

ثم ان هذه الشريعة شريعة دائمة ليست قوانينها بمبنية على أعراف امة خاصة أو عوائد زمن محدود ، بل هي مبنية على مبدإ الفطرة التي فطر عليها الانسان . ولأن هذه الفطرة قائمة في كل زمان أو حال ، ينبغي أن تبقى هذه القوانين التي بُنيت عليها قائمة في كل زمان أو حال كذلك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .